محاضرة رقم 10: عبد الله الغذامي والنقد الثقافي.

– تهدف هذه المحاضرة إلى:

–موضعة منهجية للنقد الثقافي والدراسات الثقافية، باعتبارهما أحد مخرجات مرحلة مابعد الحداثة.

– الوقوف على بعض المفاهيم التي حدت هذا النشاط المعرفي، وتحسس الفروقات بين النقد الثقافي ومصطلحات مجاورة.

– النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي: مفهومه، خصائصه، خطواته المنهجية.

1/ مفهوم النقد الثقافي:

يعد النقد الثقافي *Cultural Criticism* من أهم الظواهر الأدبية التي رافقت (ما بعد الحداثة) في مجال الأدب والنقد، وقد جاء بمثابة رد فعل على البنيوية اللسانية، والسيميائيات، والنظرية الجمالية (الإستيتيقية) التي تعتني بالأدب باعتباره ظاهرة لسانية شكلية من جهة، أو ظاهرة فنية وجمالية وبويطيقية (شعرية) من جهة أخرى. ومن ثم، فقد استهدف النقد الثقافي تقويض البلاغة والنقد معاً بغية بناء بديل منهجي جديد، يتمثل في المنهج الثقافي الذي يهتم باستكشاف الأنساق الثقافية المضمرة، ودراستها في سياقها الثقافي، والاجتماعي، والسياسي، والتاريخي، والمؤسساتي؛ إما فهماً أو تفسيراً. وقد تأثر المنهج الثقافي بمنهجية جاك دريدا (1930-2004)* التفكيكية القائمة على التقويض، والتشتيت، والتشريح، ولكن ليس من أجل إبراز التضاد والمتناقض، وتبيان المختلف إضاءة، وهدماً، وتأجيلاً، بل من أجل استخراج الأنساق الثقافية عبر النصوص والخطابات، سواءً أكانت تلك الأنساق الثقافية مهيمنة أو مهمشة، وموضعتها في سياقها المرجعي الخارجي، متأثرة في ذلك بالدراسات الثقافية المتنوعة، وتمثل الماركسية الجديدة، والتاريخانية الجديدة، والمادية الثقافية، والنقد الاستعماري (الكولونيالي)، والنقد النسوي الذي يدافع ثقافياً عن كينونة التأنيث في مواجهة سلطة التذكير.

بيد أن الظهور الفعلي والحقيقي للنقد الثقافي لم يتحقق إلا في ثمانينيات القرن العشرين المنصرم والتحديد في عام 1985 في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث استفاد هذا النقد من البنيوية اللسانية، والانثروبولوجيا، والتفكيكية، ونقد (ما بعد الحداثة)، والحركة النسوية، ونقد الجنوسة، وأطاريح ما بعد الاستعمارية. ويعتبر الناقد الأمريكي فنسنت .ب. ليتش (1944- *Vincent Barry Leitch*) (أول من تبلور على يده مصطلح النقد الثقافي منهجياً الذي أصدر في عام 1992 كتاباً قيماً بعنوان: " النقد الثقافي – النظرية الأدبية وما بعد البنيوية *" الذي نقله إلى العربية هشام زغلول الصادر عن المركز القومي للترجمة في مصر.

ويعني هذا أن ليتش ينتمي إلى نقد (ما بعد الحداثة)، إذ يلتجئ إلى تشريح النص تفتيتاً وتفكيكاً، واستجلاء الأنظمة غير العقلية والأنساق الثقافية الإيديولوجية ضمن رؤية انتقادية وظيفية. وبتعبير آخر، يتعامل ليتش مع النص أو الخطاب، بالتركيز على الأنظمة العقلية واللا عقلية، وتفكيكها اختلافاً وتقويضاً وتضاداً على غرار التصور التفكيكي عند جاك دريدا.

ويعمل ليتش أيضاً على نقد المؤسسة الأدبية التي توجه أذواق القراء بالطريقة التي ترتضيها هذه المؤسسة. ومن ثم، ينتقد ليتش المؤسسة الثقافية التي كان لها تأثير سلبي في طريقة التلقي والاستجابة لدى القراء.

يقول **آرثر ايزابرجر** وهو أحد أهم المؤسسين للنقد الثقافي في كتابه النقد الثقافي-تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية- معرفا النقد الثقافي بأنه "نشاط وليس مجالا معرفيا خاصا بذاته بمعنى أن نقاد الثقافة يطبقون المفاهيم والنظريات المستمدة من حقول معرفية متعددة على الفنون الراقية والثقافة الشعبية والحياة اليومية، وعلى حشد من الموضوعات المرتبطة، فهو كما أعتقد مهمة متداخلة مترابطة متجاوزة متعددة، كما أن نقاد الثقافة يأتون من مجالات متعددة ويستخدمون أفكارا ومفاهيما متنوعة وبمقدور النقد الثقافي أن يشمل نظرية الأدب والجمال والنقد، وأيضا التفكير الفلسفي وتحليل الوسائط وبمقدوره أيضا أن يفسر نظريات ومجالات علم العلامات ونظرية التحليل النفسي والنظرية الماركسية والنظريةالاجتماعية".

يمكن القول إن النقد الثقافي هو نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعاً لبحثه وتفكيره، ويعبر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها ويرى المفكر والفيلسوف المصري صلاح قنصوه (1936-2019) *أن النقد الثقافي ليس منهجاً بين المناهج الأخرى أو مذهباً أو نظرية كما أنه ليس فرعاً أو مجالاً متخصصاً بين فروع المعرفة ومجالاتها بل هو ممارسة أو فاعلية تتوفر على دراسة كل ما تفرزه الثقافة من نصوص سواء أكانت مادية أو فكرية، ويعني النص هنا كل ممارسة قولاً أو فعلاً تولد معنى أو دلالة.

والنقد الثقافي هو صورة جديدة من العودة إلى ربط النص بمحيطه الثقافي، والمتميز فيه أنه ليس مدرسة محددة المعالم، بل يمكن أن يتبدل بتبديل شخصية الناقد وثقافته وتوجهاته وطبيعة النص وقضاياه وثيماته، كما أن النقد الثقافي مفتوح على التأويل وعلى مناهج السيمائيات وتحليل الخطاب ومختلف العلوم الإنسانية المحيطة بالأدب، بل إنه مرتبط بحركات فكرية وثورية كالحركة النسوية، وحركة " الزنوجة " وصراع الحضارات والثقافات، وغير ذلك مما يقع في باب الخطاب المضمر في النص، والنسق المضمر المحرك له.

3/عبد الله الغذامي ولحظة التأسيس لمشروع النقد الثقافي :

يعتبر الناقد السعودي عبد الله الغذامي (-1946) أول باحث عربي تبنى النقد الثقافي بمفهومه العربي بكتابه "النقد الثقافي- قراءة في الأنساق العربية الثقافية" الصادر عام 2000. كان الغذامي جريئاً في تحطيم ما يعتري الثقافة العربية من أنساق مضمرة وهتك أسرارها بما لم يفكر فيها أحد من قبل، وهو أول باحث عربي تسجل له الريادة فمشروعه مشروع حيوي مهد الطريق أمام الباحثين العرب لتعرية الأنساق الهدامة الموجودة في الخطابات.

يعرفه الغذامي بأنه " فرع من النقد النصوصي العام. ومن ثم فهو أحد علوم اللغة، معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه. وهو نقد غير مؤسساتي وغير رسمي، فهو غير معني بكشف الجماليات كالنقد الأدبي، وإنما هَمُه الكشف عن أقنعة المخبوء جمالياً وبلاغياً .وهو ظاهرة من الظواهر التي تزامنت مع نقد ما بعد الحداثة في الأدب والنقد يستعين بجميع المناهج ليتمكن من كشف وتعرية الأنساق الثقافية المضمرة الموجودة في الخطابات الثقافية. "

تطور النقد الثقافي عن النقد الأدبي، فالنقد الأدبي بقي على تقليديته بنقد النصوص وتفسيرها ثم إصدار الحكم النقدي المتعارف عليه ضمن مصطلحاته المعروفة لكن النقد الثقافي لا يحل محل النقد الأدبي أو يلغيه فالعلاقة بينهما علاقة تكامل لا علاقة تنافس أو الغاء لأن النقد الثقافي ينفتح ويستعين بكل المناهج ومنها النقد الأدبي.

كما يسعى النقد الثقافي إلى إلغاء الطبقية الثقافية لكونه يركز على أنواع الخطابات عامة، ويدعو إلى المساواة بين الأثرياء والفقراء، ويمقت التمايز الطبقي والعنصري، ويعري الظلم الذي يسلط على المهمشين من خلال تركيزه على ضرب المركز ليتساوى المهمش معه، ويعري ثقافة المؤسسة لتتساوى معها الثقافة الشعبية المهمشة. إذن هو نقد إنساني يخدم الانسان دون النظر إلى قوميته أو عرقه أو طائفته. ولا يهمش الآخر سواء أكان ذكراً أو انثى، ولا يفرق بين فقير أو غني، ويعلي من شأن الحرية والمساواة والديمقراطية وقد ساعدته الحرية والديمقراطية على كشف الأنساق سواء كانت سياسية، أو اقتصادية، أو دينية أو اجتماعية، أو أخلاقية. فهذه الأنساق بإمكانها التعبير عن ذواتها بحرية فضلاً أنه ينقد الأنساق المضمرة والظاهرة في كل الخطابات وبكل أنواعها وصيغها، ويسعى النقد الثقافي إلى زحزحة المركزية الذكورية التي تقصي المرأة حتى تتساوى مع الرجل في الحقوق والواجبات ويعري ذكورية المجتمع التي أوجبت هذا التمايز بينهما .

4/ خصائص النقد الثقافي:

يتصف بمجموعة من الخصائص، وهي كالآتي:

-إبعاد الانتقائية المتعالية التي تفصل بين النخبوي والإنتاج الشعبي، فيقوم بدراسة ما هو جمالي وغير جمالي.

-كشف جماليات أخرى في النص لم يُلتفت إليها من قبل.

-الدخول في عمق النص بدلاً من النظرة السطحية.

-كشف القيم الفضلى والحقيقية للنص.

-تذوق النص بوصفه قيمة ثقافية، لا مجرد قيمة جمالية، وذلك من خلال عن الكشف عن حقائق تحيط بالنص وقائله.

-ربط العلوم الإنسانية بالأدب (علم الاجتماع، علم النفس، التاريخ...) مما يساهم في إثراء النص والساحة الثقافية.

-يرتبط النقد الثقافي بالعمل السياسي، فهو يربط عمل المثقف بالسلطة، والسلطة بالمثقف، ويدرس العلاقة المترتبة على ذلك.

-كشف حقائق متعلقة بالنصوص المهمشة من خلال إلقاء الضوء عليها، حيث يهتم هذا النوع من النقد بنصوص المعارضة، والأدب الشعبي، والأدب النسوي، ونحو ذلك.

-يتناول النقد الثقافي النسق المضمر في الثقافات المحلية، للارتقاء بها وتسويقها إلى العالمية.‘‘

علاوةً على ذلك، علينا ألا نخلط النقد الثقافي بنقد الثقافة أو الدراسات الثقافية العامة، فالنقد الثقافي هو الذي يتعامل مع النصوص والخطابات الأدبية والجمالية والفنية، فيحاول استكشاف أنساقها الثقافية المضمرة غير الواعية، وينتمي هذا النقد الثقافي إلى ما يسمى بنظرية الأدب على سبيل التدقيق. في حين، تنتمي الدراسات الثقافية إلى الانثروبولوجيا، والاثنولوجيا، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والإعلام، وغيرها من الحقول المعرفية الأخرى.

وهذا يعني (بمعنى أدق) أن الدراسات الثقافية تركز على مختلف الخطابات الثقافية التي تنتجها المجموعات البشرية المختلفة والمتنوعة، وعلى مستوى المثاقفة بين تلك الثقافات، وعلى أنواع من الثقافات الخاصة والعامة والهامشية، وبالخصوص الهيمنة الثقافية. وقد ظهرت النظريات المؤثرة للهيمنة الثقافية وفعلها من حركة الدراسات الثقافية مثلما هو الشأن بالنسبة لمعظم نظرية التواصل التي تحاول تفسير القوى الثقافية الموجودة وراء النظام العالمي الجديد، وبالعولمة.

وفي هذا السياق، يقول عبد الله الغذامي " ونميز هنا بين " نقد الثقافة " و" النقد الثقافي "، حيث تكثر المشاريع البحثية في ثقافتنا العربية، من تلك التي عرضت وتعرض قضايا الفكر والمجتمع والسياسة والثقافة بعامة، وهي مشاريع لها إسهاماتها المهمة والقوية، وهذا كله يأتي تحت مسمى " نقد الثقافة "، كما لابد من التمييز بين الدراسات الثقافية من جهة والنقد الثقافي من جهة ثانية، وهذا تمييز ضروري التبس على كثير من الناس حيث خلطوا بين " نقد الثقافة " وكتابات " الدراسات الثقافية "، وما نحن بصدده من " نقد ثقافي "، ونحن نسعى في مشروعنا إلى تخصيص مصطلح " النقد الثقافي " ليكون مصطلحاً قائماً على منهجية أدواتية وإجرائية تخصه، أولاً، ثم هي تأخذ على عاتقها أسئلة تتعلق بآليات استقبال النص الجمالي، من حيث إنه المضمر النسقي لا يتبدى على سطح اللغة، ولكنه نسق مضمر تمكن مع الزمن من الاختباء، وتمكن من اصطناع الحيل في التخفي، حتى ليخفى على كتاب النصوص من كبار المبدعين والتجديديين، وسيبدو الحداثي رجعياً، بسبب سلطة النسق المضمر عليه.

5/ الخطوات المنهجية للنقد الثقافي التي اقترحها عبد الله الغذامي:

ويمكن حصر هذه الخطوات المنجية في المراحل التالية- :

أ/مرحلة المناص الثقافي: ندرس فيها كل العتبات الثقافية من مؤلف، وعنوان، ومقدمة وإهداءات، وسياق، وهوامش، ومقتبسات، وصور، وأيقونات، ووسائط إعلامية ... وكل ذلك من أجل استخلاص الأبعاد الثقافية في **هذه** العتبات الفوقية والمحيطة -

ب/مرحلة التشريح الداخلي: هنا نقوم بتحليل النص وتشريحها وتفكيكها جماليا وبنيويا وسيميائيا وأسلوبيا ، فلابد من الاهتمام بما هو فني ولغوي وأسلوبي وبلاغي لفهم ماهو ثقافي- .

ج/مرحلة الرصد الثقافي: تعتمد هذه المرحلة على رصد التمظهرات الثقافية، واستخلاص الأنساق الثقافية المضمرة، وذلك بالوقوف عند الجمل والمجازات والكنايات والصور والدلالات والأنساق الثقافية المضمرة .

د- مرحلة التأويل الثقافي: نتكئ في هذه المرحلة على العلوم الإنسانية كالتاريخ، والفلسفة وعلم الاجتماع، وعلم المؤسساتية، وذلك في شكل أحكام وخلاصات واستنتاجات ثقافية.الثقافة، وعلم النفس، والنقد الأدبي في استجلاء الأبعاد الثقافية، وفضح الإيديولوجيات، ونقد الأوهام والأساطير في ضوء هذه الخلفية المعرفية يمكن فهم الدعوة التي يهدف إليها النقد الثقافي ، والتي تكمن في الانفتاح على الثقافي من أجل توسيع مدارك الخطاب النقدي وفتحه على خلفيات معرفية أخرى .كذلك مشروع النقد الثقافي الذي جاء(ليتش) الذي يعتبر أول من بلور مصطلح النقد الثقافي، وأخذه عنه الغذامي، لا يحاول إلغاء النقد هي ممارسة ثقافية بل ممارسة لأرقى أشكال الثقافة.الأدبي، بل يعتبره جهد فكري وثقافي وعقلي وتأملي يبدأ بالتذوق وينتهي بالتحليل والتعليل والممارسة النقدية.

من مراجع المحاضرة:

- جميل حمداوي :النقد الثقافي بين المطرقة والسندان، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، المغرب (تطوان)، ط1، 2015.
- قماري ديامنتة :النقد الثقافي عند الله الغذامي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر، 2012-2013،
- صلاح قنصوه :تمارين في النقد الثقافي، دار ميريت، القاهرة ، ط1، 2002،
- عبد الله الغذامي :النقد الثقافي – قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2005.
- حسام الدين فياض، حول مفهوم النقد الثقافي محالة للتأصيل، الموقع الاكتروني: قناص، 2023م